رصيف في ظل العمارة

قصة : مال الله حسين

كان الرصيف أمـــام باب المقهى ، مزدحما بالرواد . وانتشرت عليه المقاعد والكراسي ... أما في الداخل ، فكان خاليا تماما ... كانت الارض قد رشت منذ وقت قصير ، لذلك أحس الجالسون ، بالحر والرطوبة الخانقة ..

الصمت قد خيم على المكان بعـــد أن سكتت الأصوات التي كانت تعلق على سير اللعب ، كلما تدحرج النرد أمام اللاعبين .. وانحسرت الشمس تاركة الشارع الهادىء أمام الرصيف ، يحتضن ظلال العمارة الشاهقة ..

تململ (أبو ستار) فوق مقعده ، ونظر الى الجالس أمامه ، وكأنه يستحثه على الحديث ... وبعد صمت قصير قال بتمهل صبر :

ـ لم تخبرني ماذا قررت أن تفعل؟..

أجاب (**أبو ناجي**) وهو يمسح العرق المتصبب من وجهه :

ـ سأنتظر بعض الوقت ... لعلي أجد عملا آخر ...

ارتسمت على وجه **أبي ستار** علامات الأسف وخيبة الأمل وقال بعد تردد :

ـ يا أخي .. والله العمل بسيط .. بسيط جدا ! .. بضعة أيام فتتعود عليه ، ولا تشعر بالخجل أو الحرج ..

هز **أبو ناجي** رأسه ببطء وقال بانفعال :

ـ والله صعبة على هذه الأشياء ... يا أخي أنا لم أتعود مثل هذا العمل .. أقف ببابات الملهى أمسح سيارات باقي عمري ؟ ... لا أستطيع أبدا .. !

سكت ، وفي عينيه الغضب والحيرة.. سعل **أبو ستار** واعتدل في جلسته وقد ارتسمت على وجهه امارات الضيق والتبرم ... تمخط ومسح أنفه بظاهر يده ثم قال :

ـ اذا أردت أن تموت جوعا ، احتفظ بكرامتك ... مضت سنة وأنت تبحث عن عمل يلائمك ! بلا نتيجة .. اريد أن أعرف ماذا تستطيع أن تعمل وأنت بهذا الحال ؟! ..

كان ينظر اليه باشفاق وألم .. وبعد صمت قصير أضاف متوسلا :

ـ الله يحفظ لك ناجي ، فكر بعائلتك .. فكر بمصير ابنك ومستقبله ! ... والله لو لم يتوظف ابني ستار ، لما تركت هذا العمل ...

صار لي خمس سنين وأنا أمسح سيارات .. و ...

وسكت غاضبا ... خيم الصمت على المكان . وارتفع صوت الراديو يؤذن لصلاة المغرب ... خف الزحام ، وتبعثر الرواد كل الى جهة ... نهض أبو ستار واقترب من **أبي ناجي** وهمس قائلا :

ـ أنا ذاهب ... أرجو أن تسمع كلامي وتذهب في الساعة التاسعة ، وتجرب مرة واحدة ..

وسار مبتعدا عن المقهى ..

بقي أبو ناجي جالسا وحده يفكر : **ماذا يفعل ؟ ... أيذهب ويجرب ؟ .. صحيح هو بحاجة الى العمل ، ولكن ايرضى بهذا ؟ ! ...** وأخيرا أقنع نفسه بالتجربة ...

في التاسعة تماما كان قد وصل الملهى بخطوات متعثرة خجلى ... نظر أمامه ... ليس هناك أي سيارة .. جلس على الرصيف أمام الباب ينتظر ... ومضت ساعة احتشدت السيارات في الساحة وفي الشارع ... وقف أمامها حائرا ، يرتسم التردد في عينيه ، ويفضحه الاضطراب والخجل ... قلب الخرقة في يده ، ودعكها ... انه لا يدري ماذا يفعل .. وكيف يبدأ .. !

وتمتم في سره :

ـ « واذا انتهيت من المسح ، من يقول اني ساقبض ! ؟ ... اللعنة على أجدادك يا أبا ستار .. أوقعتني بهذه الورطة بسهولة ! ... »

تمشى متنقلا بين السيارات جميعا ، يتفحصها ، ولا يدري بأيها يبدأ .. كان هناك خليط منها ، القديمة والجديدة .. الحمراء والملماعة .. وأسر في نفسه :

ـ » السيارات أيضا مثل الناس ..

يستطيع أن يلحظ عليها القبح والجمال الفقر والغنى ... »

هز رأسه .. ابتسم ولعن الدنيا فى سره .. رفع رأسه الى السماء وعمعم من بين اسنانه :

ـ « **سأبدأ وأمرى الى الله ...** » .

وتقـــدم ... ومن ورائه سمع وقع أقدام .. استدار .. كان شرطى يقف وراءه يتفحصه :

ـ ماذا تفعل هنا .. ؟ ..

قالها الشرطى بقوة وصرامة .. عاص قلب أبى ناجى واضطرب وبصـــــوت متحادل قال :

ـ **أ ... أمســـح .. ابو ســـتار بعثنى ..**

ابتسم الشرطى ابتسامة الواثق من قـــوته .. طبطب بعصـــاه على قحده بايقاع ، ثم تحرك مبتعدا .

حين انتهى من العمل ، كان منهكا .. جلس على الرصيف يستريح . وطافت عيناه بتفحصان نتيجة عمله .. تنفس بارتياح . مسح العرق عن جبينه ، وبدأ يعد السيارات . **ثلاث عشرة سيارة .. اى ثلاثة عشر درهما ان صـــح ما قاله أبو ستار ...!**

واتجه الى صـــحكات تراقصـت فى داخل الملهى .. تدحرجت الموســـيقى تحمل الضجيج الى أذنيه .. انه لا يفهم شيئا . كل شىء هنا ينطق بغير لغته هو .. كل شىء غريب عنه . حتى النساء هنا يختلفن .. ببصاوات شقراوات ، رشيقات طويلات . **يتكلمن الـ ... ماذا ؟ ! .. انه لا يدرى ... وتذكر انه .. ناجى تلميذ مدرسة ربما يعرف لغتهن ..**

خيم عليه الحـــزن ، وسرح ببصره بعيدا ونسى الضجيج من حوله ... كم تألم وهو يرى ابنه الوحيد عائدا فى الليل من المقهى ، والتعب يهد جسمه الصغير هدا .. خمس ساعات يحمل الماء بيده ، يدور ويدور .. ! .. ولكن لولاه والدراهم القليلة التى يأتى بها كل ليلة ، لانفضح حاله ..

وأحس بالألم يعتصر قلبه .. ارتعشت أحفاده ... احتضن بأنفاسه الحارة .. زفر الالم بقوة ويأس .. عامت عيناه بدموع اعتصرها الأسى .. تلمس كتفه بيده . رحفت يده الى الأسفل ببطء ، اعتصرت القمـاش الذى يستـتر ذراعه المقطوعة .. بكى بصمت .. انسابت دموعه حارة غزيرة تكوى خديه .. هز

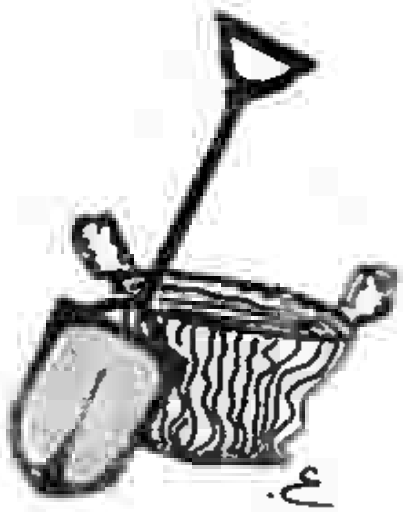

جسمه الانفعال ، وكاد ينفجر .. تمالك نفسه وهدأ .. أرخى يده عن القماش وأسند رأسه براحة يده .. **ثلاث سنين** مضت والصورة الأليمة تفرض نفسها **على مخيلته بالحاح .. وعنـــاد فيتذكر الحادث :**

ـ « محمود .. ساعدني لنعمل ثغرة ، وندفع الجدار كله مـــرة واحدة ... أوشك النهار أن ينقضي ونحن لم نهدم شيئا بعد ... »

هكذا قال له أبو كاظم وهما يشتغلان بهدم بيت قديم ..

ساعده وعملا الثغرة ... ولكنهما لم يدفعا الجدار ... اندفع لوحده فوقهما .. مات أبو كاظم وخرج هو بدماء تسيل على وجهه و ... ذراع مسحوقة ، قطعت فيما بعد ، وبقي عاطلا هذه السنوات ..

ـ ... ...

سمع كلمات لم يفهمها .. انتشلته من ذكرياته الأليمة .. نهض واقفا ، وسار يسبق المتكلمين الى الســـاحة . ووقف أمام السيارة يمسح بسرعة ... اقتربا ، وفاحت رائحة العطور تحدثه أنفه .. أحس برأسه يدور ، وفي قلبه دبت حمى النشوة . كان الرجل ثخينا قصير القامة أصلع الرأس .. وكانت الفتاة حسناء جميلة القوام .. ركبا ، وركبت معهما الضحكات المحبوسة ... اصيبت المصـــابيح .. دار المحـرك ، وتحركت السيارة ... ابتعد عن طريقها بسرعة .. وبسرعة أيضا مرقت السيارة تهدر وترمجر ، وكأنها تهرأ منه وتمتص الضحكات ...

وقف مشـــدوها وفي داخله يعـوى الغضب .

ـ « لو لم أتقدم لمسح بي الارض .. مجنون ! ؟ .. » .

كانت السيارة أمام الملهى تتناقص بالتدريج .. ويـــد أبي ناجي تداعب الدراهم في جيبه .. تماوج نسيم الليل برقة ونشم وجهه الملتهب ... دب النعاس في أجفانه وأحس بالخمول يسري في أوصاله .. لم يبق في الساحة الا سيارة واحدة .. كانت فارهة أنيقة .. تقدم منها وتفحصها باستخفاف ... وحقد . وهمس في سره :

ـ « السـيارة جديدة .. وصاحبها غني لا محالة .. ودراهمي الستة التي في جيبي سوف لا تزيد .. »

واستدار ليذهب الى البيت .. ألقى نظرة عجلى على باب الملهـــى ... كان الشرطي يتقدم نحوه والابتسامة تطفح من وجهه :

ـ كيف وجدت العمل .. ؟

ـ لا بأس به ... على الرغم من أنه **مخجل ... ! .**

قال الشرطي وفي صـــوته شيء من الألم :

ـ « لا تنتظر من غير عطاء .. وانت لا تحس بالخجل مرة أخرى ... » ...

وافترقا ... سار أبو ناجي قاصدا البيت وبسمة الرضى تملأ وجهه الأسمر .. ويده تداعب القماش الذي يستر يده المقطوعة ...

مال الله حسين

العراق ـ الموصل ـ